



قرأتُ المصحف بهذه النية باحثاً عن آفاق التغيير وسُنْتِه ونمادجه، فوجدتُ الكثير، وشعرتُ بالاغتياب وأنا أقف على كنوزٍ من الأسرار العجيبة.

التحلل والتراجع والضعف سُنة إلهية، كما هي في الأجساد حين تكبر وتهزم، كذلك هي في المجتمعات والدول، تمهدًا للزوال والانفراض.

حتى الدول الراسدة الصالحة، وحكومات الأنبياء والخلفاء لا تدوم.

التغيير الإيجابي يعالج هذه السُّنَّة، ويفلح في تأخير السقوط؛ فقد تسقط الدولة في قرنٍ، وقد تتمتد لخمسة قرون أو ستة. الذين يرفضون التغيير يَسْتَرِسلُون لِحَمْيَة التراجع، ولذا يسرعون السقوط، وربما هربوا منه إليه، فداووه بالتي كانت هي الداء!

في القرآن التعبير بـ«الأجل».

فكما للإنسان أجل لا يُقدَّم ولا يُؤخَّر؛ {وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا} [المنافقون:11]، وكذلك للمجتمعات أجل، وهذا في القرآن أكثر، وأنا بصدق حشد الآيات التي فيها الحديث عن آجال الأمم والأقوام، كما في قوله: {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ} [الأعراف:34].

وبعض الآيات تحتمل هذا وهذا، كقول نوح عليه السلام: {وَبُوَخْرُكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخِّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [نوح: 4]. وهو إلى الثاني أقرب؛ ف بالإمهال هنا للأمة كلها بتأخير العذاب عنها.

بعض الكيانات التي حانَ أجلها تُصارِع للبقاء، وتظن أنها بقوتها العسكرية وقتلها المزيد من الناس، أو أنها باليتها الإعلامية التي تضلّل بها المغفلين، أو أنها بقبضتها الأمنية التي تنشر بها الرعب؛ تحصل على الفسحة في الأجل!

كلا.. فالسُّنَّة والناموس أنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخِّرُ، والشيخوخة في حياة الدول كَهُى في حياة الفرد؛ ضعف في الخلايا، وتراجع في الأداء، ووهن في النفس، وانحدار لا يمكن تلافيه، يثقل السمع في الأمة فلا تسمع النَّذِير، ويضعف بصرها فلا ترى الخطير القادر..

السنة الربانية تقول: {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَبُوا فَأَخْذَنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [الأعراف:96].

هذه فرضية أن لو دام لهم الإيمان والتقوى بمقدارها المرتفع لتحقق لهم الوعد، على أن دوام الحال من المحال، وتغيير الأجيال مُحَتمٌ بلا جدال.

التحلل والزوال هو بفعل الإنسان قطعا؛ {ظَاهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ} [الروم:41]. بعض الأزمات عابرة للتنبيه، {إِلَذِيقُهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [الروم: 41]، ولذا تكون الأزمة تجديداً لنسيج الدولة، وتحفيزاً على تغيير خلاياها الفاسدة، وإصلاح نظمها، وضخ الدماء الشابة النشطة فيها. وبعضاً أزمات مُقيمة مستوطنة تفعل فعلها البطيء الخطير الذي يدرك العقلاء بحسهم البصیر، ولا يدركه غيرهم حتى تتحقق نتائجه فيظنونه مفاجأة أو نتيجة من دون أسباب. هنا «قانون السنة الإلهية» المحتملة يعمل في خط منتظم مؤكداً..

يعمل في مجتمع مسلم كما يعمل في مجتمع كافر، قانونه العدل والإنصاف، ولذا يُريط الزوال بالظلم. و«قانون الفعل البشري» فالناس يُفكرون وبخططون ويتحالفون ويتآمرون ويقاتلون ويتكلمون ويهددون، وكل امرئ إرادة وقدرة، تتفق أو تختلف عن إرادة الآخرين، وكل شعب أو حكومة أو دولة إرادة وقدرة تتفق أو تختلف عن إرادة الآخرين، ومن هنا يبدأ الصراع بين هذه الإرادات. ما بين خط السنة الإلهية الجارية الخفية.. وخط الفعل البشري الظاهر المشاهد..

تقع الحيرة للناس.. متى تقف هذه لتبدأ تلك؟ وأين ميدان عمل كل منها؟
كيف يفهم المؤمن ما جرى في العراق؟ هل هو وفق سنة إلهية محكمة؟ أم مجرد فعل بشري أعمى أو إقليمي؟
كيف يفهم ما يجري في فلسطين؟
كيف يفهم ما يجري في أفغانستان؟
كيف يفهم ما يجري في تونس؟
كيف يفهم ما يجري في مصر؟
كيف يفهم ما يجري في ليبيا؟
كيف يفهم ما يجري في سوريا؟
كيف يفهم ما يجري في اليمن؟
هل القصة مؤامرات خارجية؟ وهل تفعل المؤامرات الخارجية فعلها بعيداً عن سنة التاريخ الربانية؟ ومتى ينتهي هذا ليبدأ ذاك؟
إن السنن ناتجة عن فعل الإنسان، فهي الأثر المتحقق من جراء ما يعمل؛ {إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ} [الرعد:11].

وهي لا تُعبر عن أفراد محدودين، ولكنها «الاستفتاء الإلهي» الناتج عن المجموع، ولذا فهي العدل الصارم، وربما داخليها الفضل والرحمة والإمهال.

ولذا يحدث أن يأخذ الله أمة أو شعراً وفيهم الصالحون؛ لأن الفساد والخبث عليهم أغلب، وربما حوكם مصلحون على أعمال كانوا يظنونها القدر الممكن من الإصلاح وتقليل الشر في فترة ما.

فعن زينب بنت جحش رضي الله عنها قالت: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً فزعناً محمراً وجهه يقول: «لا إله

إِلَّا اللَّهُ، وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدْ اقْتَرَبَ، فُتَحَ الْيَوْمُ مِنْ رَدْمٍ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ». وَحَلَقَ بِإِاصْبِعِهِ إِلَيْهَا.

قَالَتْ: فَقَلَّتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنْهَلْكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟ قَالَ: «نَعَمْ، إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ». مُتَفَقُ عَلَيْهِ.

قَدْرُ مِنَ الْخَيْرِ هُوَ سَبَبُ طُولِ الْأَجْلِ لِدُولَةٍ مَا، وَهُوَ سَبَبُ الْعَرَاقِ وَالْجَدَلِ الَّذِي يُصَاحِبُ زَوْلَهَا!

عَلَيْنَا أَنْ نَدْرِكَ أَنَّ أَوْلَئِكَ الصَّالِحِينَ كَانُوا يَشَاهِدُونَ الْمَوْقِفَ، وَيَرَوْنَ النُّذُرَ، وَيَحَاوِلُونَ، وَمَعَ هَذَا حَقٌّ عَلَيْهِمُ الْهَلاَكَ، وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ يُبَعَّثُونَ عَلَى نِيَّاتِهِمْ، أَمَا فِي الدُّنْيَا فَالسُّلْطَنَةُ لَا تَسْتَثْنِي أَحَدًا.

كَثِيرٌ إِذَا مِنْ يَحْمِلُونَ هُمَّ الْإِصْلَاحِ يَجْهَلُونَ أَوْ يَغْفِلُونَ عَنْ «الْإِمْكَانِيَّةِ السُّنْنِيَّةِ» الَّتِي تَمْضِي وَفَقَ مَا هُوَ مَرْسُومٌ لَهَا وَمُحَمَّلٌ لَرَجْعَةِ عَنِهِ.

وَكَثِيرُونَ يَجْهَلُونَ الْقُدْرَةَ وَالْاسْتِطاعَةَ الَّتِي يُمْكِنُهُمْ مِنْهَا وَاقْعُهُمْ، فَلَيْسَتِ الْقَدْرَةُ مُجَرَّدَ رُؤْيَا عَلْمِيَّةٍ، وَلَا رُغْبَةٌ وَجْدَانِيَّةٌ، إِنَّهَا قِرَاءَةُ الْوَاقِعِ وَفَهْمُهُ وَمَعْرِفَةُ مَدِيَّ مَا يُسْمِحُ بِهِ، فَفِي الْمَجَمِعِ تِيَارَاتٌ وَاتِّجَاهَاتٌ وَرُؤُسٌ مُتَبَايِنَاتٌ وَقُوَّى صَادِقَةٌ وَأَخْرَى تَنْظَاهِرُ بِالصِّدْقِ وَتَكْوِينَاتٌ وَتَرَاكمَاتٌ وَتَقَافَاتٌ يَصْعُبُ تَجَاهِلُهَا.

تَمْكِينُ الْفَرَدِ مِنْ مَارْسَةِ أَقْصَى طَاقَتِهِ الْذَّهَنِيَّةِ وَالْعَمْلِيَّةِ، وَتَمْكِينُ الْمُؤْسِسَةِ مِنْ تَنْظِيمِ نَفْسِهَا وَأَدَاءِ مَهْمَتِهَا، وَاقْتِصَارُ دُورِ الْمَجَمِعِ وَالْدُّولَةِ عَلَى تَنْسِيقِ هَذِهِ الْأَعْمَالِ لِتَكُونَ مَنْتَجًا نَافِعًا، يَصِلُّ بِالْأُمَّةِ إِلَى أَقْصَى أَمْدُهَا وَأَجْلَهَا الْمُحْتَوِمُ.

وَالْتَّدَافُعُ هُنَا سُنَّةُ قَائِمَةٍ، فَلَا خَوْفٌ مَمَّا يَحْدُثُ فِي مَجَمِعَاتٍ حُرَّةٍ مِنْ تَنَازُعِ الإِرَادَاتِ، وَاخْتِلَافِ الرُّؤُسِ وَالْتَّشْكِيلَاتِ السِّيَاسِيَّةِ، مَا دَامَ الطَّيْفُ كُلُّهُ يُؤْمِنُ بِحَقِّ الْآخِرِ فِي التَّفْكِيرِ وَالْقَوْلِ وَالْفَعْلِ، وَيَحْتَكُمْ إِلَى الْعَدْلِ.

كَمَا مِنَ الْخَضْرِ بِجَدَارٍ يَرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ فَأَقَامَهُ بِحَرْكَةٍ مِنْ يَدِهِ، يَسْتَطِعُ الْمُصْلِحُونَ أَنْ يَمْدُدُوا فِي أَعْمَارِ مجَمِعَاهُمْ وَدُولَهُمْ وَجَمَاعَاتِهِمْ بِالْوَفَاءِ لِلْمَاضِي؛ {وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا}، وَإِدْرَاكُ إِمْكَانَاتِ الْحَاضِرِ وَفُرَصِهِ، {وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا}، وَالتَّخْطِيطُ النَّاجِحُ لِلْمُسْتَقْبَلِ؛ {فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَأْلِمَا أَشْدَهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ}.

وَهَذَا وَذَاكَ فِيهِ فَعْلَ الْعَبْدِ الظَّاهِرِ الْمُشَاهَدِ بِالْعَيْانِ، وَفِيهِ السُّنَّةُ الْإِلَهِيَّةُ الَّتِي هِيَ فَعْلَ الْرَّبِّ؛ {وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي}

[الكهف: 82]